أصوات من الجبل المقدّس ٤

نور المسيح يشعّ على الجميع عبر كلّ القدّيسين

الأرشمندريت باسيليوس

رئيس دير إيفيرون سابقًا، جبل آثوس

تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع م.م.

أصوات من الجبل المقدس ٤

نور المسيح يشعّ على الجميع عبر كلّ القدّيسين

الأرشمندريت باسيليوس

رئيس دير إيفيرون سابقًا، جبل آثوس

تعريب الأب حنانيا حكيمة

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة

للنشر والتوزيع م.م.

أيقونة الغلاف: جداريّة لأديرة الجبل المقدّس وقدّيسيه - الإسقيط الروماني، ١٨٦٦.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١٥.

أنجزت مَطبعة الينبوع طباعة هذا الكتيب
في شهر أيلول ٢٠١٥

آباء الكنيسة مكرّمون ومعروفون بأنّهم النجوم التي تكشف لنا ليتورجيًّا أنّ «نور المسيح يشعّ على الجميع»[1].

عندما تقترب منهم تجد عرضًا تلقائيًّا وعفويًّا للحقّ الذي يحرّر. تجد الحياة، الاستقامة، العقيدة، الاتّضاع، غنى الروح، ارتقاء الجسد، تجلّي العالم، استنارة الظلام، معنى غير المحدود، بهاء السرمديّة الذي يغمر كلّ يوم وكلّ شيء عاديّ ومألوف. أعطي الإنسان قيمته الحقيقيّة، تجد فيه ذلك الأتون (الناريّ- الجليديّ) للقدّاس الإلهيّ حيث تمتلئ كلّ الأشياء بالنور الذي يغيّرها: يشعلها كلّها بالنار، يجعلها قطرات ندًى باردة. يتحرّك الآباء بحرّيّة ممتلئين بهاء، متكلّمين بإنسانيّة، موزّعين البركات، يحتملون الجميع بحزمهم، وبمحبّتهم يعرفون الجميع ويحبّونهم بمحبّة الإله الواحد ذي الثلاثة أقانيم الذي هو المحبّة، يحبّون الجميع لأنّهم هم المحبّة.

تعيش الكنيسة الأرثوذكسيّة الحقّ عبرهم على أنّه شركة المحبّة. إنّها تعظّم هذه الشركة على أنّها تعظّم الثالوث القدّوس. إنّها تحترم الشخص كإنسان في الشركة.

خرج الله الكلمة من ذاته وجاء ليسكن داخل الجميع، بسبب شوقه الشديد إلى أن يأخذ الجميع من نعمته. هو لم

[1] قدّاس القدسات السابق تقديسها الإلهيّ.

يأت ليعلن فيض ألوهيّته أو ليكشف فقرنا ووضاعتنا، عوضًا من ذلك أصبح فقيرًا وهو غنيّ عسانا بفقره نصبح أغنياء (٢ كورنثوس ٨: ٩)، أصبح إنسانًا متّخذًا كلّ ما عندنا باستثناء الخطيئة، لكي يعطينا كلّ ما عنده باستثناء هويّة جوهره، وبذلك سيصبح الجميع أبناء الله وآلهةً بالنعمة.

إفراغ الذات، وهو عمل محبّة لا يمكن إدراكه، هو تجلّ، إظهار لله الحقّ على أنّه اتّحاد أشخاص يتبادلون المحبّة.

هذه هي رسالة الخلق الجديد، رسالة الحياة التي يعلنها الآباء عبر وجودهم، يظهرون طريقة حياتهم، ويعلّمونك كيف تعيش، وتكتب، وتنظم.

يسمحون لكلّ شيء بأن يتحرّك بحرّيّة، ينتظرون الشخص الآخر حتّى يجد إيقاعه الخاصّ، ويجد دربه.

يضحّون بحياتهم، على مثال ابن الله المتجسّد، من أجل حياة الآخر، يسكبون النعمة، يخفون فضائلهم بسبب التواضع، يعلمون أنّ كلّ شيء حقّ معطى من العلى. أعطوا الله الشيء القليل الذي يملكونه وتلقّوا منه كلّ شيء باستمرار، ويتقبّلونه من دون توقّف، لا يحتملون إسراف الحياة، يريدون الانسحاب إلى الجوانب ليكونوا صامتين، ليتواروا عن الأنظار، ليهدأوا وكيلا يكونوا عرضة للشهرة. حياة الآخرين هي كلّ ما يريدونه.

حقيقة بزوغ النعمة على شكل عطيّة إلهيّة أعظم من كلّ الأمجاد ومن كلّ المراتب الرفيعة في العالم.

إنّهم في مكان آخر، تسقي جذور كينونتهم جداول غامضة، يتلقّون تعزية غريبة وغير طبيعيّة، إنّهم موجودون منذ بدء الأكوان: «عندما ترنّمت كواكب الصبح معًا وهتف جميع بني الله....» (أيّوب ٣٨: ٧).

الله «يعمل حتّى الآن» (يوحنّا ٥: ١٧) حاملاً خلاص العالم، والقدّيسون يعاينون مندهشين ومنشدين له التمجيد، هم ينقصون «ينبغي أن ذلك يزيد وأنّي أنا أنقص» (يوحنّا ٣: ٣٠)، من أجل أن ينتشر الحبّ الإلهيّ ويتدفّق حتّى ترتوي الأرض ويضيء الظلّ، ومن أجل أن يواسَى حزن العالم ويحوَّل إلى فرح.

يسعون أوّلاً إلى الحصول على ملكوت الله، وأيّ شيء آخر أعطي لهم هو عطيّة مجّانيّة، ببساطة هم ليسوا مفكّرين، خطباء، كتّابًا أو شعراء، إنّهم أناس أحرار، حقيقيّون، واقعيّون، متّحدون بالله، يتحرّكون بعفويّة وتلقائيّة، يعبّرون عن أنفسهم بصدق ويحبّون التواضع، مُلئوا حكمة، أصبحوا خطباء ذهبيّي الفم، علماء لاهوت، شعراء، مهندسين للعالم، نمّوا مواهب مخفيّة، وشعّت كينونتهم منهم، لم يتعلّموا الإلهيّات،

بل اختبروها بأنفسهم، وتكبّدوا عناء خوضها، هذه الأشياء غيّرتهم وألّهتهم، أصبحوا تجليًّا لله (بكلمات أخرى)، تجليًّا حقيقيًّا للإنسان، يظهرون ما هو الإنسان وما باستطاعته أن يصبح عليه.

ينحدر وحي اللاهوت ونعمته فجأة من العلى في لحظة لا تتوقّعها، لحظة تصلها فقط بعد المرور بعذاب التجارب والعواصف، في تلك اللحظة من السكون والشفافيّة بعد العاصفة، يمكن رؤية الأشياء المخفيّة بكلّ وضوح، «الأشياء السرّيّة والمخفيّة» تغدو معروفة «لأنّك قد أحببت الحقّ وأوضحت لي غوامض حكمتك ومكنوناتها» (المزمور ٥٠).

مرّة أخرى، إذا كان كلّ شيء مغطّى بضباب اليأس، فإنّ رجل النعمة يتحرّك غير عاجز، لأنّ الغشّ في الأرض كشف له وبقي هو في داخله واضحًا وصافيًا.

إنّها لنعمة من الله أن تتساءل منذ ولادتك عن الأشياء الأهمّ والأعظم، وهذه الأسئلة، مع الرغبة بجمع التضادّ، تعجنان معًا وتشكّلان كينونتك.

إنّه لمن الجرأة ولكن أيضًا من العظمة أن تعطي كلّ شيء وتذهب إلى ما بعد حدود الفساد، وتسلّم نفسك ليدي الله الكلّيّ القدرة، وفي النهاية ليس لتتكلّم أنت بل لتتكلّم

نعمة الله عبرك بكلّ وعي وتوبة.

الآباء «العناصر العظيمة التي تشكّل الإيمان كما لو أنّه الخلق»[٢] أنجزوا ذلك كلّه، كلّ واحد بطريقته الخاصّة يكشف الحقيقة ذاتها.

وهكذا لدينا القدّيس باسيليوس الكبير الذي يتحدّث بنبرة ملوكيّة[٣] وبعظمة ورصانة، ناقلاً رسالة الملكوت.

وعندنا الذهبيّ الفم كالعندليب الذي يغرّد أينما ذهب ويضيء الليل بأكمله بلمعان صوته المصقول، هذا القدّيس الملهم يشارك بالكامل في الرسالة التي يبشّر بها، هيكل جسده الصغير ينبض والجموع تتأثّر إلهيًّا عبر العصور. عاين السيّد المسيح، الله المتأنّس، بآلامه وقيامته ووصفه مرفوعًا خارج المدينة والجدران على منصّة عالية (الصليب) لكي ينقّي الهواء وكلّ الخليقة والأرض المأهولة. ثمّ يصل إلى خطابه الفصحيّ التعليميّ والذي يذهب به إلى ما بعد العصر الحاليّ، ويجعل الجميع يسمعون اليوم والآن كلمات الدهر الآتي الفائقة الوصف، وفي وسط انبلاج النور الفصحيّ العظيم، حيث ما عاد لقوانين الطبيعة أيّ فائدة تدعو الجميع إلى فرح السيّد المسيح.

---

[٢] خدمة الغروب الممتاز لعيد الثلاثة الأقمار.

[٣] لعب على المعنى الحرفيّ لاسم باسيل «ملوكيّ».

أيضًا لدينا غريغوريوس، اللاهوتيّ والشاعر، بنثره المكتنز وفصاحته الملهم بها، يتكلّم على ميلاد السيّد المسيح وعلى أشياء أخرى، يصوغ عبارات معيّنة تظهر عمق لاهوته ومعرفته عن ماهيّة الإنسان. هذه المقاطع المختصرة (العظة ٣٨ على التجلّي ٧-١٣) المتضمّنة سرّ الخلق والخلاص، تكشف لنا حقيقة وجودنا وتصف جوهر ميلاد السيّد المسيح. إنّها تسلّط الضوء على سرّ تجسّد الله، ومن ثمّ يضع الكلمات ذاتها بدون تغيير أو إضافة في عظته على الفصح، (العظة ٤٥: ٣-٩). يقول تمامًا الشيء ذاته لأنّه يريد أن يكون شاعرًا حقيقيًّا مبتكرًا، لأنّه في ملكوت الحقّ التكرار يكون مدهشًا ومفاجئًا.

كتابة القدّيس غريغوريوس النيصصيّ اللاهوتيّة، بفلسفتها الإلهيّة ووضوحها، هي أنصع صورة للإنسان الذي استنبط الأسئلة الوجوديّة، إذ وجد الجواب، تغلّب على العراقيل، «عبر جبال الألب»، خبر تحوّل الوديان إلى جسور والجبال إلى سهول من أجل الربّ. لذلك استطاع أن يتقدّم من دون معوّقات، يسمع جواب الله «عبر ما يرفضه»[4]، عبر الأسئلة التي يرفض الله الإجابة عنها. إنّ صمت الله وعجزه عن الإجابة لهو شرح واضح ينير القدّيس غريغوريوس ويطمئنه.

---

[4] حياة النبيّ موسى.

لدينا القدّيس مكسيموس المعترف الذي بالحقيقة هو «الأعظم» كما يقول اسمه، والذي باختباره الليتورجيا يقترب من «الله ذي الأسرار التي لا توصف ولا ترى»[٥]. بعبارات قليلة، يتكلّم على أمور بلا نهاية، وفي عالم لاهوته يتملّكك الإحساس بوجود نجوم للحقّ، لم تدرك حواسّك نورها بعد. إنّه الإشعاع الإلهيّ العظيم والمنير الذي يوضح كلّ الأشياء ويحرّرها ويوحّدها. إنّه تبرير الشوق الشديد إلى هؤلاء الذين عاشوا قبله، الذين يتكلّمون بلغة هيراقليطس ومفرداته المعقّدة والمختصرة.

رأى الآباء النور الحقيقيّ، اكتسبوا الصحّة الروحيّة، تحرّروا من أنفسهم وتمتّعوا بحرّيّة الزمن الآتي، إنّهم مشبعون بالنعمة، يثقون بحبّ الله. رأوا أيّة نهاية يقود إليها كلّ شيء.

وصلوا إلى النقطة التي يقولون عندها بوعي كامل «الآن تطلق عبدك يا سيّد حسب قولك بسلام» (لوقا ٢: ٢٩).

لهذا باستطاعتهم أن يعطوا شابًّا فتيًّا تعليمًا مناسبًا، بحضورهم، تشعر بالراحة. لا يجعلونك تشعر بالصغر، لا يستغلّونك، لا يحتقرونك، ولا يكذبون عليك لأنّه ليست لديهم عقد خاصّة بهم ليخفوها، إنّهم يؤمنون، يختبرون

---

[٥] قدّاس القدسات السابق تقديسها الإلهيّ، الإفشين بعد دخول الأسرار المقدّسة.

ويعلمون أنّ الله يحبّ كلّ مخلوق صنعه، يحبّ الشخص بكامله ويحبّ حرّيّته. التقرّب إلى الله بحرّيّة له أهمّيّة كبرى عندما يحين وقتك. من المهمّ أن تجازف عند نقطة معيّنة في اتّخاذ خطوتك الشخصيّة، أن تتجرّأ على التعبير عن اعتراضاتك وشكوكك كما فعل توما الرسول، أن تعترف بالحقيقة، وأن تسمع الراعي الصالح يناديك بالاسم. ومهمّ أيضًا أن تتجاوز عتبة الخوف والتردّد، وأن تأخذ الخطوة التالية: أن تستعبد نفسك لله طوعًا، قائلاً: إلهي، ليس لديّ ثقة بنفسي.

نفسي الحقيقيّة هي أنت، يا من خلقتني، ومن يحبّني ويدعوني إلى مغامرة الحرّيّة الشديدة الخطورة، لكي أستطيع أن أجد روحي، وذلك بأن أفقدها عمدًا، ومن أجل ذلك أريد لإرادتك أن تنفّذ لا إرادتي.

ثمّ تبدأ بالسير على أرض مختلفة، والطيران على أجنحة رياح الروح القدس، والنعمة الإلهيّة تعتني بك كما تعتني الدجاجة بصغارها.

هذه هي الطريقة التي يبدأ بها الشخص، يتجاوز الإنسان نفسه ويبدأ، مسلّمًا ذاته للإرادة الإلهيّة، والله يعطي النعمة والفرح بدون أن نستحقّهما، لأنّه في كلّ أوان وزمان، «مع أنّه

لا يترك نفسه بلا شاهد وهو يفعل خيراً»[٦]، لطالما كان لديه قدّيسوه. «لم يترك نفسه بلا شاهد» لأيّ كائن بشريّ، كلّ واحد فينا لديه تجربته الداخليّة لمحبّة الله له.

علينا ألاّ ننسى أنّ الخطأ يكون جنبًا إلى جنب مع الحقيقة، إلى جانب الله الحقّ الذي هو محبّة يوجد أيضًا الشيطان الذي هو الكراهية. إنّه يفتري على الحق[٧]، يشوّه الخالق، يشوّش الحقيقة، لديه «لاهوته» الخاصّ به، الذي يحثّ آدم وحوّاء، الجدّين الأوّلين، على أن يتألّها باستماعهما إلى الشيطان.

وهكذا جنبًا إلى جنب مع الآباء الحقيقيّين والمرشدين سديدي الرأي، هناك دائمًا الأنبياء الكذبة الذين يتظاهرون بأنّهم مستنيرون وبأنّهم صانعو عجائب، ولكنّهم في الحقيقة وبكلّ بساطة مرضى وتتملّكهم أرواح الوهم، ويعرفون عدم استقرار روحيّ، فينتابهم مرض يسبّب لهم تشوّشًا مظلمًا واضطرابًا داخليًّا.

وإزاء هذا الخطأ الذي يهدّد الإنسان ويهلكه، هناك نوعان من ردّ الفعل:

---

[٦] أعمال الرسل ١٤: ١٧.

[٧] الكلمة اليونانيّة «diavolos» تعني الشيطان وتشتقّ من فعل «يفتري».

١. ردّ فعل بشريّ يتجلّى في منطق السقوط والحيويّة الممتزج بفساد الخطيئة وبالكبرياء وبتأثير شيطانيّ.

٢. ردّ فعل آخر ناتج من تجربة ليتورجيّة أرثوذكسيّة والتي يعبّر عنها الآباء بأجمعهم.

أوّلاً: أوّل نوع من ردّ الفعل وبدون شكّ لديه بعض المسوّغات وهو مقنع أيضًا، يعطي الانطباع، كما هي الحال في الحقيقة، في ضلوع شيء حيويّ وثوريّ، ولكنّه على الفور يجمّد دمك لأنّك تستطيع رؤية الفساد الممرض الدفين هناك.

هؤلاء الذين يتظاهرون بأنّهم ضدّ الانحراف والفساد لا يضعون في حسبانهم ضعفهم الداخليّ، وبقيامهم بردّ فعل على الفساد الواضح للانحراف يعطون قيمةً مطلقة لوجهة نظرهم البشريّة النسبيّة الخاصّة بهم، ويقعون في فخّ الكبرياء ذاته ويصبحون ضحايا، ربّما يكونون ضحايا، لطفاء ودودين لكنّهم خطرون لأنّ تأثيرهم يكمن في تضليل أناس آخرين كثر وتدميرهم.

يقدّم الأنبياء الكذبة والموهومون أنفسهم على أنّهم ذوو سلطان سحريّ وقوى خارقة غيبيّة، (يخيّل أنّها ذات امتيازات وأنّها طاهرة وعديمة السقوط).

ورغم ذلك يسبّبون للناس مشكلة لا نهاية لها في صورتهم

المشوّهة عن «الأعجوبة، والسرّ، والسلطة»[8].

ولكنّ الله يوضح ما الذي سيحدث في اليوم الأخير عندما سيظهر كلّ صانعي العجائب أمامه ويقولون: «يا ربّ يا ربّ أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوّات كثيرة، عندئذ أصرّح لهم بأنّي لم أعرفكم قطّ، اذهبوا عنّي يا فاعلي الإثم» (متّى ٧: ٢٢–٢٣).

كم جريمة ارتكبها هؤلاء الناس الضعفاء الذين يستغلّون عجزهم الروحيّ بتعيين أنفسهم مرشدين بمواهب وتنبّؤات؟

كم من الناس وقعوا ضحيّة مثل هذه المجموعات من الناس وصانعي العجائب! إنّهم مثل الأشجار التي وقعت بين يدي بستانيّ غير بارع: وبدلاً من أن يقلّموا، تمّ قطعهم، لم يتمّ إحياؤهم بنور الحقّ والمحبّة الإلهيّة، لم تتمّ محاكمتهم في الهواء الطلق لحقيقة الحرّيّة، ولكنّهم ذبلوا في ظلمة الزيف والنفاق الكئيبة، والنتائج واضحة من بعيد.

ثانيًا: ومن الناحية الأخرى، لدينا ردّ الفعل الآخر على خداع المعلّمين الزائفين، وهو ردّ فعل الخبرة الإفخارستيّة الأرثوذكسيّة، والتي يعبّر عنها عموم الآباء ويعبّر عنها أيضًا بشكل شخصيّ أب مثل مكسيموس المعترف، هذا الأب

---

[8] فيودور دوستويفسكي، الأخوة كارامازوف، سلسلة بابنتام، ص. ٣٠٧.

يعرف الإنسان كاملاً قبل السقوط (ما الذي حدث في قلبه)، وبعد السقوط (ما الذي عاناه في حياته)، وخلال فترة النعمة (ما هو فردوس الحرّيّة الذي ناله روحيًّا وجسديًّا)، إنّه يعلم كامل مسار الإنسان وتقدّمه ويعيشه ويصفه. وكذلك بالنسبة إلى عمليّة تجاوز الجهل والشرّ بأكملها أيضًا، إنّه يحيا ما وصل إليه من الفضيلة والمعرفة، وعنده خبرة في الذهاب إلى ما وراء الأشياء الصالحة المعروفة (كالمعرفة والفضيلة)، وفي التقدّم إلى حالة ما وراء الطبيعة والإدراك الحسّيّ، هناك حيث النفس، المرتاحة في سرير الله، الذي هو قبل كلّ شيء معصوم عن الخطأ، تصبح واحدًا مع الله الكلمة، عندها تعلم حقائق الأشياء الداخليّة (المفهومة والمحسوسة) في حين أنّها قبل زواجها بالله الكلمة كانت تحت رحمة التمييز المنطقيّ[٩].

وهكذا عندما يعبر كامل الشخص بوعي إلى واقع الكنيسة الليتورجيّ، فإنّ المؤمن يبدأ بحالات اليقين والسلام الداخليّين، هذا يجعله يستمع لداخله ويقول «نعم»، وهذه الـ«نعم» هي طاقة الحياة التي تحتفل بسرّ الصعود. هذه الـ«نعم» تعرف بأنّها نور معرفة يفتح الطرق إلى الوحدة بين الحرّيّة وبذل الذات للآخر. هذا هو المكان الذي ينتقل إليه

---

[٩] القدّيس مكسيموس المعترف، الباترولوجيا اليونانيّة، ٩١: ٦٨١ ب.

طبيعيًّا المسيحيّ الذي دخل في الليتورجيا. وهو يختبر كامل هذه العمليّة على أنّها بركة لنفسه وللآخرين الذين يشعر معهم بأنّه جزء من شركة وحدة كاملة ودائمة.

إلى جانب هؤلاء الآباء العظماء القدّيسين الذين نعرفهم بالاسم، يوجد أيضًا آخرون كثيرون سحابة كاملة من أشخاص غير معروفين ومجهولي الاسم، ولديهم النعمة ذاتها رغم أنّ صوتهم لم يسمع بين العامّة، ولم يصبحوا شخصيّات معروفة. بقوا غير معروفين بالنسبة إلى العالم أو إلى أقرب الناس إليهم أو حتّى إلى أنفسهم، لأنّهم يعتبرون أنّ تلك النفس هي لا شيء، لا يعيرونها أيّ اهتمام. لم يجدوا فيها أيّ موهبة يمكنهم التفاخر بها، لذلك تمكّنوا من الوقوف بثبات على قدميهم وإحداث تأثير صغير، فضّلوا حياة التوبة وخدمة المحبّة والعطاء، بينما كانوا يخفون كلّ ما كانوا يفعلونه، كانوا لا يقولون شيئًا، ولم يتفوّهوا حتّى بعبارة واحدة. ولكنّهم كانوا يقولون الكثير بالطريقة التي يتصرّفون بها، وبابتسامتهم، وباستعدادهم للمغفرة، وأصبحوا واحدًا مع الله، هؤلاء هم الناس غير الموجودين، هؤلاء «الأشياء غير الموجودة» (١ كورنثوس ١: ٢٨) و«هم الذين لم يكن العالم مستحقًّا لهم» (عبرانيّين ١١: ٣٨). كانوا موجودين حقًّا، إنّهم موجودون. وتبقى تجربة حياتهم وتصرّفاتهم

وموتهم بركةً. هؤلاء الناس الحقيقيّون والمجرّبون هم مثل الذهب في بوتقة تمّ فحصهم وشعّ وهجهم.

ظلّوا تعزيةً، كندى حرمون للباقين منّا.

وكلّ هؤلاء الناس، المعروفين والمجهولين، القدامى والحديثين، يشكّلون مؤسّسة الكنيسة، إنّهم بيننا، في حيّنا، في عملنا في منزلنا، لا نشتبه بهم أبدًا، نعبر عنهم في الشارع، لا نميّزهم، ونقص تمييزنا هذا يناسبهم.

يحبّون ازدراءنا لهم، بتلك الطريقة يستطيعون التحرّك بحرّيّة، يصلّون من دون توقّف، يفعلون الخير من دون أن يعرف أحد بذلك وبدون ضجّة.

نتذكّرهم أحيانًا في وسط الأحزان التي تجعل من الرجل إنسانًا، أو في وسط المآسي التي يمكن أن تحدث لأيّ شخص منّا، عندها تبحث عن القدّيسين وتجدهم، وتقوم أنت بتشكيل دائرة معارف أخرى، تجد هؤلاء الناس الذين اختفوا، هؤلاء غير الموجودين، المتواضعين والرحبي الصدر، أناسًا أصبحوا حقيقيّين عبر المعاناة، تعيش معهم، تجلس هناك تستمع وتشاهد، لا تفعل شيئًا: تخضع ببساطة لشعاع الصمت الذي يعطونه بفيض مقدّس خفيّ، وشعاع الحياة الإلهيّة هذا يلامسك ويشفيك، إنّه يشفي جروحك، يشكّل وجودك الحقيقيّ، يغذّي روحك،

يعطي لكيانك جوهره، يجعلك مرهف الحسّ، يمنحك تعزيةً هي فيض وحبّ للحياة، تشعر بأنّك عربة لنقل الفرح، وعاء مختار، خلق لمحبّة موجودة منذ الأزل، ثمّ أخذت جسدًا في الزمن. تدخل (أنت) بوعي في المكان والزمان الليتورجيّين، تعيش مع جميع القدّيسين، تبقى صامتًا وتمجّد الله من دون توقّف الذي هو البداءة والنهاية، النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسان آت إلى العالم (يوحنّا ١: ٩).

أخيرًا تفهم أنّه لا يوجد أناس قدامى أو جدد، يوجد فقط أناس حقيقيّون أو مزيّفون.

القدّيس هو شخص حقيقيّ، يبقى حيًّا بغضّ النظر عمّا إذا كان قديمًا أو معاصرًا، متعلّمًا أو غير متعلّم، إنّه قوّة الحقيقة وحيويّة الروح تذهب بعيدًا بالمسافات الزمنيّة، لا تأبه بالتعليم أو عدمه، إنّها تمرّ مباشرة عبر المخلوق ويمكن رؤيتها بالنعمة غير المخلوقة، جاعلةً ثوب كلمات الشخص المقدّس يشعّ مثل النور (متّى ١٧: ٢). كان عجوز[١٠] بسيط من آباء الصحراء (اليرونديكون)[١١] يتجوّل ليعيش في البرّيّة مثل حيوانات البراري، (الأب بيصاريون)، ولديه من نعمة الإيمان

---

[١٠] الأنبا بيساريون.

[١١] مجموعة أقوال آباء الصحراء الشيوخ، منشورات النور.

وجرأته ما لا يقلّ عن شخص مثل مكسيموس المعترف. إنّ مؤمنًا متواضعًا اليوم لديه حقيقة نعمة العنصرة، ولذلك لا يصنّف نفسه كشيخ جليل أو يتبع نوعًا معيّنًا من اللاهوت. يظهر محبّة الله للبشريّة، وكذلك يظهر قلبه النقيّ بابتسامة أو بكلمة مريحة.

يمكننا أن نأخذ مثالين عن شخصيّتين بارزتين عاشتا حقيقة الليتورجيا ونعمتها:

١) الأب إسحق السرياني، من القرون الأولى ومعاصر في الوقت ذاته لأنّه حقيقيّ ويحبّ البشريّة.

٢) كاتب معاصر يدعى باباذيامانتيس يغمرك بروح التوبة لأنّه يمارس مهنته كخدمة مقدّسة للكلمة.

يتكلّم الأب إسحق السرياني لغةً جديدةً، لغته الشخصيّة، إنّه سيل جارف ونهر صالح للملاحة يسكب ماءه اللامتناهي بهدوء، بحر كامل من مياه الشرب الرقراقة، في بحر آلام الحياة المالح، إنّه ينقل الماء، يعطي البركة ذاتها من دون توقّف، هذه البركة لا تستنفذ، إنّها محتواة بالكامل في كلّ فصل من كتابه. وكامل كتابه يقول الشيء ذاته، لقد بلغ إلى النهاية، استفاق ليدرك ما لا يمكن فهمه ولا يمكن البلوغ إليه. تقدّمه لا ينتهي رغم أنّه وصل إلى النهاية مسبقًا منذ البدء، خبر فرح الإنسان

الذي يربح، فقط من أجل مصلحتنا وفائدتنا جميعًا.

وجد الشخص الوحيد الذي أنار الأشياء كلّها بنور غير مخلوق، إنّه الأبعد عنك ولكنّه أكثر شخص مألوف لك، وهو الأكثر شدّة في تسامحه، إنّه يحلّلك تمامًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وليس بمقدورك أن تعترض أبدًا، لأنّه بكلّ تأكيد على حقّ، إنّك مندهش فقط: كيف تمكّن من الوصول إلى داخلك واستكشاف امتدادات نفسك الأكثر عمقًا والتي، كما اعتقدت، لا يمكن الوصول إليها؟ وفي الوقت ذاته يغرس فيك تعزيةً هائلةً تذيب فؤادك الصلب، تمنحك الصحّة وتعطي أجنحة لآمالك، تكشف لك أنّك بلا معنى ولكنّك في الوقت عينه ثمين لأنّ الله يحبّك، وأنّه من الممكن لك أن تخلص وأن تتقدّم باتّجاه فرح لا نهاية له.

٢) عند باباذيامانتيس تجد انسجامًا في الروعة الليتورجيّة، كلّ شيء مشتعل بنور مبهج لمجد مقدّس، كلّ شيء أصبح قدّاسًا إلهيًّا.

كرامة كهنوتيّة حوله بالكامل يسيطر عليها السكون والهدوء، تقف ساكنًا تمامًا، تتنفّس برويّة، لا تحتمل العظمة السماويّة في الأصوات والكلمات والصور الإلهيّة أيّ اضطراب، العين التي ترى بوضوح لا تستطيع أن تحتمل ذرّة غبار.

تشعر عبر طريقة عيشه والتعبير عن نفسه وتنقّله، أنّه يتسربل نعمة كهنوتيّة ما، ويحتفل بسرّ الكلمة كامتداد لسرّ الله- الكلمة المتجسّد، إنّها ليست مسألة ماذا يقول لك بل مسألة من يقولها؟ وكيف يقولها؟ كلمته مغلّفة بالنور، ولها جاذبيّة إلهيّة.

إنّها مثل لحظة غسق أو لحظة طلوع فجر في فصل الخريف، عندما يتركك متسمّرًا في مكانك، كلّ من سحر ألوان النور والظلام آتيًا من الغيوم، ونسمة النور، وصخب الضوء الذي لا صوت له، تجعلك هذه اللحظة تهجر كلّ أعمالك وأفكارك وتلتفت لتسلّم نفسك للجمال السماويّ الذي ينكشف أمامك بحركة بطيئة، ويلج داخلك مثل طعم حياة إلهيّة ورسالة فرح. وبطريقة مماثلة عندما تقرأ عبارة واحدة من عمل الكاتب الكهنوتيّ هذا، فإنّ كلّ عبير الكنيسة الأرثوذكسيّة وجمالها يتدفّق بهدوء ويغمر كلّ شيء، يخرج النور من داخله كبخور طيّب الرائحة، وهو شاكر لله كثيرًا لأنّه لا يعتبر هذه العطيّة (منه) أو على الأقلّ لا يتباهى بها، ولهذا السبب يبدو أنّ النور لا يخرج منه بل من جميع الأشياء والأماكن والناس التي يصفها، يرى كلّ شيء عائمًا بنور التوبة الإلهيّ، يتغذّى كلّ شيء بالنور ليتدفّق منه السلام.

وبالطريقة عينها كلّ شخص ولج داخلاً قلب الليتورجيا، يرى «الكلمات»، الحقائق الداخليّة في الأشياء الموجودة، محتفلاً بالاشتراك مع الكلمة المتجسّد الواحد، «الذي يعطي ويعطى»[١٢] في ليتورجيا العالم بأكمله.

حياة العالم الكاملة، خلقها وتاريخها هي القدّاس الإلهيّ الذي يقود الأشياء كلّها إلى نهاية مباركة، أصبحت الأشياء الأرضيّة سماويّةً. (من خدمة عيد البشارة).

الشخص الذي تعمّد في روح القدّاس الإلهيّ لن يفترق عن تلك الروح، إنّه دائمًا داخل القدّاس الإلهيّ، يكشف كلّ شيء له وهو يحتفل بشركة مع الكلمة الوحيد سواء كانت هذه الشركة إراديّة أو لا إراديّة، وهذا الشخص يغذّى بالموسيقى السماويّة في كلّ زمان ومكان، إنّه يأخذ نورًا من النور الذي لا ليل له، وهو يتقدّم إلى الأمام، بينما يبقى في المكان ذاته لأنّ تسبيحه لله وفرحه الداخليّين لا يتوقّفان أبدًا، وهو لا يعلم إذا كان في الواقع يعطي الفرح والنور للجميع، أم يأخذ الفرح والسعادة من كلّ مكان.

يجد نفسه جزءًا من ليتورجيا يشترك الكون بأكمله في الاحتفال بها، يرى الخليقة بأكملها كتجلّ (ظهور) إلهيّ،

[١٢] المقدّم والمقدّم صلاة التسبيح الشيروبيميّ، القدّاس الإلهيّ للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم.

شجيرةً مشتعلةً لكنّها لا تفنى، لأنّه بواسطة الليتورجيا «الأشياء كلّها ملئت بالنور»[١٣].

بالحقيقة، «نور المسيح يشعّ على الجميع» عبر كلّ القدّيسين.

[١٣] الأوديّة الثالثة من قانون الفصح العظيم المقدّس.

أبصر الأب باسيليوس (Gondikakis) النور في جزيرة كريت اليونانيّة العام ١٩٣٦. درس اللاهوت في أثينا، وفي ليون، فرنسا. بعد زيارة الجبل المقدّس (آثوس) شعر وكأنّه في بيته وقرّر أن يبقى هناك. في البدء أقام في قلاية بالقرب من الشيخ باييسيوس. في العام ١٩٦٨ طلب إليه أن يكون رئيس دير ستافرونيكيتا. في سنواته الاثنتين والعشرين كرئيس دير (١٩٦٨-١٩٩٠) كان نسمة حياة معطاءة من التجديد، وأظهر حماسة خاصّة إزاء الهدوئيّة واليقظة (hesychia and nepsis) اللتين تتميّز بهما روحانيّة جبل آثوس. قدّره آلاف الزوّار والحجّاج الذين عبر تجربتهم الشخصيّة وبطريقة متواضعة وبسيطة جدًّا «تذوّقوا ونظروا ما أطيب الربّ».

في العام ١٩٩٠ تولّى الأب باسيليوس رئاسة دير إيفيرون، وأعاد إليه حياته الرهبانيّة الشركويّة.

قدّم الأب باسيليوس إلى قرّاء اللغة الإنكليزيّة، عبر عمله المعروف جيّدًا تحت عنوان «تسبيحة الدخول»، رسالته التي كانت «كلمة حياة ليست من أجل آثوس فقط بل من أجل العالم المسيحيّ بأكمله». وصفه الأسقف كاليستوس (وير) بأنّه الرائد في التجديد والإحياء اللافت للحياة الرهبانيّة في الجبل المقدّس.

خلال الثلاثين سنة الماضية قام الأب باسيليوس بنشر هذه الرسالة إلى ما بعد حدود جبل آثوس المقدّس، وذلك عبر المشاركة في اللقاءات الليتورجيّة ومؤتمرات الشباب واجتماعات المؤمنين.

AN-NOUR COOP